رؤياه للطبيعة ذلك « الريح تسفع النوافذ بوابل المطر . هدير الامواج يقتحم اعماقي » . وتتوضح الرمزية أكثر فاكثر بصراحة لتكشف ان الطبيعة توجد من خلال عيون الانسان كرمز كما عند نائينال هوثورن وهرمن ملفيل وادغار آلن بو وبرونتي وغيرهم . ومحفوظ يذكر هذا بصراحة على لسان منصور : « عايشت العاصفة من وراء الزجاج .. حتى نعمت بالصفاء . شيء حدثني بان تلك الدراما انما تحكي أسطورة مطمورة في قلبي .. وتخط طريقا ما زال غامض الهدف .. أو تضرب موعدا في غمغمة لم تفهم بعد » . اما مع سرحان البحيري ابن الريف فتتردد عبارة « وتذكرت موسم جني القطن في قريتنا » . ولا أجد نفسي في هذا المجال مضطرا للتوضيح ، فعلاقة الطبيعة الرمزية بالانسان جلية تماما . فكما يقول كاتب المسرح الايطالي الشهير بيرنديللو : « لكل حقيقته ، يكفي أن تريد الايمان بذلك » . وهكذا فكل من شخصيات « ميرامار » له حقيقته عن الطبيعة . انها ليست موضوعية بل ذاتية تماما . والطبيعة لم تكن لتوجد الا بوجود الانسان . انها جماد عدمي بدونه ، وبدون حدة بصره وبصيرته .

*

لعل ما يميز قصص نجيب محفوظ عن قصص غيره من الكتاب العرب هو عمق ما أسميه « بالخلقية الفكرية » للاحداث والشخصيات. ان الحدث في أي قصة لنجيب ، وأخص بالذكر الشحاذ ، والسمان والخريف ، وثرثرة فوق النيل ، وميرامار ، يرتد الى فلسفة فكرية عميقة وتنظيم دقيق مدهش : حصيلة صعبة المنال وكنز ثري للمثقف العربي . وقد ذكرت قبل قليل القضية الجوهرية في « ميرامار » ، وهنا أحب أن أوجه نقدا طريفا لمحفوظ هو ان سرحان البحيري يستطيع أن يرمز للخيانة حسب رؤيتنا نحن ولكن ليس حسب رؤية منصور، فالخيانة الواضحة هي خيانته لزهرة فقط ، وهذا يحطم المعنى الفكري ويضعفه الى مستوى الاحداث العادية . كان يجب على محفوظ القاء الضوء على خيانات سرحان الاخرى وخاصة في العمل والا فستبدو تصرفات منصور الاخيرة ، كما بدت فعلا ، غير مقنعة رغم روعتها الرمزية . نقطة أخرى ألوم عليها محفوظ الى حد ما هي سلبيته وسوداويته في انتقاء الشخصيات ، فهم اما تائهون او مخادعون أو منحسرون أو عاجزون . انني أتساءل في قلق مع عديد من القراء : أين هو انسان الثورة اذن ؟ أين هي مظاهر مصر الاشتراكية ؟ سرحان خائن يكذب لسانه بما لا يؤمن ، ومنصور باهي مؤمن ضعيف الارادة عاجز عن التضحية . نحن لا نرى اذن الا الجانب المعتم ، الجانب الاسود من دنيا مصر العربية . أنا لا أطلب من محفوظ ان يكون موجها مباشرا ، او ان يكون بطله مطلق الايجابية ، فهذا من شأنه اضعاف فن القصة . انني أطلب منه أن يعطي من خلال امتداداته عبر المجتمع صورة للانسان الثوري في مصر ، مهما كانت جانبية ، كما فعل في « السكرية » مثلا ، ثالث ثلاثيته الرائعة . هذا ضروري لميرامار في اعتقادي ، فلم يكن ليكتب لمسرحيات هنري ابسن وبرنارد شو ، ولا لكبار قصاصي روسيا امثال غوركي وتولستوي ولا لاي كاتب عالمي النجاح والشهرة ، لو لم يقدموا بعض الشخصيات الايجابية مهمة كانت أم ثانوية . على كل حال ، ما يشفع لمحفوظ اديب قصتنا العربية الاول هو النتيجة شبه الايجابية لقضية منصور ، انه يركل الخيانة والتقاعس .. انه يطعنهما في خياله حتى الموت . لكن السؤال هو : هل يرى محفوظ في فلسفة الثورة بناء مرصوصا خاليا من المتناقضات ؟ انه لا يعطي جوابا محددا ، لكنه يبحث عنه بأمانة وشرف ، كأي مثقف متطور ، عميقا عميقا في عقل الانسان العربي وروحه وتاريخه .

دمشق — م. رياض عصمت

يا وطني

معذرة يا وطني
لانني لم أتلفع بالدما .. بالكفن
معذرة .. بل ألف معذره
لانني لم أحترق
في القدس .. في سيناء .. في القنيطره
لانني ما زلت أسترق
من قلبك الغارق في الدماء
بعضا من الهواء
بعضا من الضياء

***

يا وطني
طلبت أن أموت
فما استطعت
ولذت بالسكوت
فما استطعت
بكيت من أعماق قلبي فانفجرت
أهيم كالمجنون لا أعرف أن أقر
أين المفر
لمن يراك نازف الجراح
محطم الجناح
لسيفهم مباح ..
يا وطني ..
يا وطني

منير شفيق